بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذه ترجمة وليست بترجمة..

لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة، وأما هذه فأحرى بها أن تسمى صورة حياة. ولأن تكون ترجمة ابن الرومى صورة خير من أن تكون قصة. لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال، ولكننا إذا نظرنا فى ديوانه وجدنا مرآة صادقة ووجدنا فى المرآة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء، وتلك مزية تستحق من أجلها أن يكتب فيها كتاب.

إن مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الإعجاب بها بين القراء. وقد يحرم الشاعر إحداها أو أكثرها وهو بعد شاعر لا غبار عليه، لأنه يحس نمطًا من الشعر تصح به الشاعرية: كالجمال فى الحسان يروقنا فى كل وجه بلون وسمة وهو فى جميع الوجوه رائق جميل، وكاللمحة الواحدة من ملامح الجمال تحلو فى هذا الوجه وتحلو فى ذاك ولا تشابه بينهما فى غير الحلاوة. ففى العيون ألف عين جميلة لا تشبه الواحدة أختها ولا تتفق اثنتان منها فى معانى النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك إلا جمال واحد عند الكلام على جوهر الجمال.

وكذلك الشعر. يعجبنا فى كل شاعر بطراز مختلف وهو شعر سائغ مستملح فى كل طراز. فالذى يعجبنا من المتنبى غير الذى يعجبنا من البحترى، والذى يعجبنا من هذين غير الذى يعجبنا من الشريف الرضى أو من أبى العلاء أو من أبى نواس أو من ابن زيدون، والذى يستحق به كل واحد منهم صفة الشاعرية غير الذى يستحقها به البقية! فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق، وأمتنع الإعجاب بهن جميعًا على الحصر والتعريف.

غير أن المزية التى لا غنى عنها والتى لايكون الشاعر شاعراً إلا بنصيب منها وهى مزية واحدة، أو هى مزية نستطيع ن نسميها باسم واحد: وتلك هى الطبيعة الفنية.

ونعتمد أن نقول أنها تسمى باسم واحد لأنها فى الحقيقة أشياء شتى تدخل فى عموم هذه التسمية

فالطبيعة الفنية هى الطبيعة التى بها يقظة بينة للإحساس بجوانب الحياة المختلفة. وهنا ينتهى بنا الإجمال إلى كلمة كأنها كلمات، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات. أليست جوانب الحياة علمًا لا حد له فى العدد ولا فى الصفة؟ ثم أليست أنواع التيقظ لتلك الجوانب أشتاتا وأخلاطا لا تجتمع فى حصر حاصر؟ بلى!فمن المتيقظين لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها ومن هو متوفر الشعور أو مهتاجة أو مستفيضة أو محصورة أو مستقيمة أو منحرفة، إلى غير ذلك من أنواع الشعور ودرجاته. فالذى تجمعه كلمة اليقظة هنيهة لا تلبث أوصاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق. فهل من سبيل إلى أسلاس المعنى وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح؟ نعم! وسبيل ذلك غير عسير، فنحن نقول موجوزين أن الطبيعة الفنية هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءًا من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو الفاقة، ومن الألفة أو الشذوذ. وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئًا واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم،وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق وبين حياة الشاعر وفنه أو يقل. كما يلتقى الصديقان أحيانا طواعية واختيارًا، أو كما يلتقى الغريبان فى الحين بعد الحين على كره واضطرار. فالإنسان والشاعر فى هذه الحالة شخصان يلتقيان فى المواعيد ثم يذهب كل

منهمـا لطيته إلى أن يتاح لهـما اللقاء مـرة أخرى بعد زمن طويل أو قصـير، وكان الشـعر عند هؤلاء الشعـراء روح من تلك الأرواح التى تلبس صاحبـها وتفارقه ثم تابسه كلـما استحضرها له مستحـضر من الحوادث والأهواء، فهو إذا لبسته شاعر يأخذ عنها ما تحسـه وينتقل عنها ما تقول، وهو إذا فارقته فرد من هذا الملأ الذى لا يوحى إليه ولا يكشف عنه الحجاب.

ابن الرومى واحد من أولئك الشعراء القليلين الذيـن ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصـيب. فمن عرف ابن الرومى الشـاعر فقـد عرف ابن الرومى الإنسـان حق عرفـانه ولم ينقص منه إلا الفـضول، والغـريب مع هذا أن ابن الرومى الشاعر هو ابن الرومى الذى لم يعرف بعد وإن عرفت له مزايا ونالت حسنات له حقها من الإعجاب.

ليس من الصدق للتاريخ أن يقال أن ابن الرومى كان خاملا فى زمانه أو بعد زمـانه بهذا المعنى الشائع من الخـمول الذى يراد به سقـوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأدبين، فلعله إذا قيس إلى الشعراء الهجائين خليق أن يعد سعيد الحظ موفور الجزاء. فقد ذهب شعر بشار إلا أقله وذهب شعر دعبل إلا أقله وبقى ديوان ابن الـرومى كله فلم يذهب منه إلا أقله! وهذه مـحاباة من الشهرة لم يرزقـها فى العربية شاعر هـجاء ولم يرزقها قبل عصـر الطباعة إلا أفراد معدودون بين سائر الشعراء.

ثم جاء عصر الطباعـة فلم يكن الخمول هو الذى جنى على ابن الرومى وآخر طبع ديوانه بعد الدواوين التى فى طبقته. لأنه ذكر فى كل كتاب متداول من كتب الأدب وحـفظت له مختـارات كثيـرة فى حيثـما وردت مختـارات الشعراء المبرزين، والذين أهملوه - كصاحب الأغانى - أنما تعمدوا ذلك حنقا عليه لا أصغارًا لشأنه، فـتأخر طبعه فى العصر الحديث لأسبـاب غير الخمول والإهمال: تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ فـى اللغة العربية من جهة، ولأن نسختـه - من جهة أخرى - لم تكن مـيسورة فى البلاد السـورية حيث

طبعت بعض الدواوين، وربما كان الاقذاع فى الهجاء سببا ثالثا مضافا إلى ذينك السببين.

فليس من الصدق للتاريخ إذن أن يقال أن ابن الرومى كان خاملا بذلك المعنى الشائع من الخمول، ولكنه مع هذا كان خاملا وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء، لأنه الخمول الذى يحفظ ذكر الأديب ولكنه يخفى أجمل فضائله وأكبر مزاياه، وهذا هو الحيف الذى أصاب ابن الرومى ولا يزال يصيبه عندنا بين جمهورة الأدباء والمتأدبين.

قال ابن خلكان يصفه ويقدره: "هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها فى أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية"

وهذا وصف صادق كله، ولكنه ليس بكل الوصف الذى ينبغى أن يوصف به ويتمم به تعريفه، فهو تعريف ناقص - والناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه.

إذ هو هو المزية الكبرى فى الشاعر، وهو هو الطبيعة الفنية التى تجعل الفن جزءا لا ينفصل من الحياة.

ما الغوص على المعانى النادرة؟ وما النظم العجيب والتوليد إن لم يكن ذلك كله مصحوبًا بالطبيعة الحية والإحساس البالغ والذخيرة النفسية التى تتطلب التعبير والافتنان فيه؟ إن كثيرًا من النظامين ليغوصون على المعانى النادرة ليستخرجوا لنا أصدافًا كأصداف ابن نباتة وصفى الدين أو لآلئ رخيصة كلآلئ ابن المعتز وابن خفاجة وإخوان هذا الطراز، وأن الغوص على المعانى النادرة لهو لعب فارغ كلعب الحواة والمشعوذين إن لم يكن صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير. وعلى الأوراق المالية رسوم ونقوش وأرقام وحروف، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوى درهمًا إن

لم يكن وراءها الذهب المودع فى خزانة المصرف! فالإحساس هو الذهب المودع فى خزانة النفس وهو الثروة الشعرية التى يقاس بها سراة الكلام، أما الرسوم والنقوش والأرقام والحروف فعلامة لا أكثر ولا أقل. وقد تغنى عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط!

نعم ما النظم العجيب والتوليد الغريب واستغراق المعنى حتى يستوفى إلى آخره ولا تبقى فيه بقية؟ إن هذا بقضه وفضيضه إن هو إلا أدوات التعبير وليس هو التعبير المطلوب فى لبابه. فإذا لم يكن عند الشاعر ما يعبر عنه فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغو لا حاجة بنا إليه، وإذا كان عنده ما يعبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا إغراب ولا استغراق فقد أدى رسالته وأبلغ فى أدائها أكمل بلاغ. وهذه هى الرسالة المقصودة وهذا هو الشعر الجيد وهذه هى الطبيعة الفنية، أما المعانى والتوليدات فهى وسائل إلى غاية لا قيمة لها إلا فيما تؤديه وتنتهى إليه، ويستوى بعد ذلك من أدى إليك سريرة نفسه بتوليد وأغراب ومن أداها إليك بكلام لا أغراب فيه ولا توليد.

وابن الرومى شاعر كثير التوليد غواص على المعانى مستغرق لمعانيه، ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته لكان غبنًا له أن نحصر هذا الدليل فى التوليد والغوص والإستغراق. فقد نحذف منه توليداته ومعانيه ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية، فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه والشاعر فى جيده ورديئه والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه، وليس الشعر عنده لباسًا يلبسه للزينة فى مواسم الأيام ولا لباسًا يلبسه للابتذال عامة الأيام. كلا! بل هو أهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه. فللردئ منه مثل مالجيد من الدلالة على نفسه والإبانة عن صحته وسقمه. بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده وأدنى إلى التعريف به والنفاذ إليه، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته. والمرء يحيا فى أحسن أوقاته

ويحيا فى أسوأ أوقاته، ولقد تكون حياته فى الأوقات السيئة أضعاف حياته فى أحسن الأوقات

هذا الجانب من شاعرية ابن الرومى هو الجانب الخامل المجهول، وهو الجانب الذى وقفنا على التعريف به صفحات هذا الكتاب. وعندنا أننا ننصف كل شاعر - ولا ننصف ابن الرومى وحده - بتوضيح هذا الجانب من الشاعرية، أو بتوضيح ما نسميه الطبيعة الفنية. لأنه هو المقياس الذى لا يتم لنا أن نقدر شاعراً بغيره، والذى نجهل الشعر كله والشعراء كلهم إذا نحن أغضينا عنه والتفتنا إلى سواه مما لا يستحق كبير التفات.

عباس محمود العقاد